

الأموال عنده، كما قال فقهاء الحنفية^(١)، فمن أتلفهما عُرِّمَ قيمتهما، وهذا الحكم بخلاف ما لو كانا ملكاً لأحد من المسلمين فلا يضمن المتلف لهما شيئاً^(٢)، وبذلك يسن الإسلام أعدل القوانين في التعامل مع الآخر. ولم يهتم تشريع سماوى ولا أرضى بحفظ الأعراس كما اهتم شرعنا الحنيف؛ فالإسلام يعتبر أى أذى معنوى أو اتهام بالباطل يتعرض له غير المسلم يصيب كرامته وشرفه فى المجتمع معصية لله ورسوله شأنه فى ذلك شأن المسلم؛ بل إن ظلم الذمى أشد^(٣).
وفى تقرير ذلك يقول الفقيه الأصولى المالكي شهاب الدين القرافي: «فمن اعتدى عليهم - أى أهل الذمة - ولو بكلمة سوء أو غيبة، فقد ضيَع ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام»^(٤).

* * *

تاسعا : مفهوم الأخوة فى الإسلام:

إن الأخوة فى الإسلام هى إحدى مفردات المساواة فى الإنسانية على المستوى النظرى والتطبيقى.

١- الشرع يحدثنا عن نوعين من الأخوة:

أ - الأخوة الإنسانية وهى رابطة مشتركة بين جميع الناس على

(١) الاختيار لتعميل المختار (٦٥/٣).

(٢) وما أثبتته فى هذا الحكم هو مذهب الحنفية، انظر فى ذلك: المبسوط (١٥٤/٩)، البناية

شرح الهداية (٢٥٢/١١).

(٣) انظر فى ذلك: حاشية ابن عابدين (٢٤٤/٣ - ٢٤٦).

(٤) الفروق ١٤/٣.

اختلاف أجناسهم وأشكالهم وأديانهم، تنشأ من الاشتراك في أصل واحد والانحدار من أب واحد وأم واحدة، وهى رابطة أو علاقة بين الإنسان والإنسان أساسها السلام والتعاون والمحبة.

وقد تعضد هذه الأخوة الاشتراك في روابط أخرى كالدين أو الوطن أو الأسرة أو المهنة أو الثقافة أو اللغة أو المصالح المادية، وهذه الروابط تتكامل وتتعاقد ولا تتناقض، فلا تعارض بين انتماء الإنسان إلى الوطن وانتمائه إلى الأسرة مثلاً، أو هكذا يجب أن يكون، لأن الانتماء إلى المجتمع الكبير أو الوطن يفترض أنه قاسم مشترك بين أفراد الأسرة، ولن يكون من السلوك السوى للفرد أن يُغلب انتماءه للأسرة كرابطة على انتمائه للوطن فيفرض في حقوق الجماعة، كأن يناصر أعضاء أسرته حتى لو كانوا مجرمين أو معتدين على مصالح المجتمع وأفراده، فيكون الإنسان بذلك قطع رابطة لصالح رابطة أخرى في موطن لا يجوز له أن يفعل ذلك، لأن الأساس الجامع لكل رابطة ينشؤها الإنسان مع الآخرين هو السلام والعدالة والحرية والتعاون.

وكذلك فلا يصح شرعاً للمسلم أن يُغلب رابطة الدين على رابطة الإنسانية، بمعنى أن تقطع الأولى الأخرى، وأوضح مثال على ذلك ما حاول بعض الصحابة أن يفعلوه في عهد رسول الله ﷺ حيث آثروا التستر على السارق المسلم وحمايته وتفويت العقاب اللازم له وتقديم شخص غير مسلم لينال العقاب مكانه، فنزلت آيات ست في سورة النساء تدافع عن حق غير المسلم في أن ينال العدالة وتبين أنه من الخيانة والغدر المستوجب للعقاب في الدنيا والآخرة أن نرمي الناس بالباطل.

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ١٠٥ ﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَقِمْتَ طَائِفَةً ﴿ ١٠٦ ﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَالُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿ ١٠٧ ﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿ ١٠٨ ﴾ هَاتَمْتُمْ هَتُولَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴿ ١٠٩ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ ١١٠ ﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ ١١١ ﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ رَزِمَ بِهِ، بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿ ١١٢ ﴾ [سورة النساء].

(وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا). قال الطبري: (ولا تكن) لمن خان مسلما أو معاهدا في نفسه أو ماله (خصيما) تخاصم عنه وتدفع عنه من ظالبه بحقه الذي خانه فيه.

وبالفطرة استعجب الصحابة حينما قال لهم رسول الله ﷺ: «انصُرْ أَحَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». واستشعروا أن هذا مخالف لما تربوا عليه فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا أَنْصَرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصَرُهُ إِذَا كَانَ ظَالِمًا ۚ فَقَالَ: «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»^(١).

إذن فالظالم أو المعتدى وإن كان بيننا وبينه رابطة الدين فإنه في ظل

(١) رواه البخاري (كتاب الإكراه - باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل).

الشريعة الإسلامية أو المجتمع الإسلامي لا يُسَمَحُ له أن يقطع رابطة الإنسانية أو رابطة المواطنة، بل يعاقب على ذلك، ويُرَدُّ عنه بكل سبيل حتى لو اضطررنا إلى قتاله والاستشهاد في سبيل ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة الأنعام].

فالعدل والسلام أساس ومقصد تبنى عليه كل علاقة بين الإنسان والإنسان، ولا يجب أن يؤثر فيهما أى رابط آخر حتى ولو كان الدين أو القرابة.

وعن رابطة الأخوة الإنسانية يحدثنا المولى عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَالِإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَالِإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَالِإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [سورة هود: الآية ٨٤].

فالأيات الثلاث تحدثنا عن أنبياء، أرسلهم الله إلى أقوامهم مبشرين ومنذرين، واستخدمت نفس الصياغة اللغوية فيها «أخاهم».

فهود أخ لقومه عاد، وصالح أخ لثمود، وشعيب أخ لمدين، وهذه الأخوة أصلها الاشتراك في أصل الخلق وفي الوطن، والأخوة التي أخبرنا الله عنها جمعت بين أنبياء الله الصالحين المصطفين وأقوامهم وكان فيهم المعاند والمستكبر، تذكرهم جميعا برابطة تجمع بينهم توجب عليهم الرحمة والسلام.

١- وعن هذه الأخوة كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة:

«اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ أَنَا شَهِيدٌ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ»^(١).

٢- ويقول ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسُّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَّرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(٢).
والتَّجَسُّسُ وَالتَّحَسُّسُ: البَحْثُ وَالتَّطَلُّبُ لِمَعَايِبِ النَّاسِ وَمَسَاوِيهِمْ إِذَا غَابَتْ وَاسْتَتَرَتْ.

ومعنى «كونوا إخوانا» أى اكتسبوا ما تصيرون به إخوانا، مما سبق ذكره وغير ذلك من الأمور المقتضية لذلك إثباتا ونفيا ، وقوله «عباد الله» أى يا عباد الله، بحذف حرف النداء، وفيه إشارة إلى أنكم عبيد الله، فحقتكم أن تتواخوا بذل. وقال القرطبي: المعنى كونوا كإخوان النسب فى الشفقة والرحمة والمحبة والمواساة والمعاونة والنصيحة^(٣).

٣ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »^(٤).

قال ابن العماد: الأولى أن يُحمل على عموم الأخوة حتى يشمل الكافر والمسلم، فيحب لأخيه الكافر ما يحب لنفسه من دخوله فى الإسلام،

(١) سنن أبى داود (كتاب سجود القرآن - باب ما يقول الرجل إذا سلم) .

(٢) البخارى (كتاب النكاح - باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع)

١٩/٧، رقم (٥١٩٨).

(٣) ابن حجر العسقلانى: فتح البارى ١٠٤٨٣ .

(٤) البخارى (كتاب الإيمان - باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ١٢/١،

رقم (١٣)، الترمذى (كتاب صفة القيامة - باب ٥٩) ٤/٦٦٧، رقم (٢٥١٥) .

كما يحب لأخيه المسلم الدوام عليه ، ولذلك ندب الدعاء له بالهداية^(١).
 ٤ - وحينما اشتد الظلم والبغى من قريش على رسول الله وأصحابه من المؤمنين ، أمر رسول الله أصحابه أن يهاجروا إلى النجاشى ملك الحبشة النصرانى ، لأنه استشعر إنسانية فى هذا الملك تدفعه إلى حماية المؤمنين وإنصافهم بصفقتهم أخوة فى الإنسانية ، قال رسول الله ﷺ :
 «إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلَكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ ، فَالْحَقُّوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ» .

قالوا : فخرجنا إليها أرسالا حتى اجتمعنا ونزلنا بخير دار إلى خير جار ، أمنا على ديننا ولم نخش منه ظلما^(٢).

فملك الحبشة كما وصفه رسول الله لا يظلم أحدا بنفسه ولا يسمح بظلم فى أرضه . وفيه إشارة إلى أن غاية الدعوة الإسلامية وغاية المسلمين هى العدل والحق والحماية من الظلم والطغيان . وإن أى دعوة متفقة مع العقل والطرة الإنسانية ليكفيها ذلك كى تنتشر وتلقى قبولا عند الناس .
 ومرت السنون ولما علم رسول الله ﷺ بالمدينة بموت النجاشى صلى عليه ومعه أصحابه ، فعن جابر رضى الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ : «مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ ، فَقومُوا فَصلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَفَةَ»^(٣).

٥ - ويقرض الإمام على كرم الله وجهه شعرا يحدثنا فيه عن الأخوة الإنسانية قال :

(١) ذكره الشبرخيتي فى الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثا النووية.

(٢) البيهقى : السنن الكبرى ٩/٩ . رقم (١٧٥١٢).

(٣) البخارى (كتاب مناقب الصحابة - باب موت النجاشى) ٥١/٥ ، رقم (٣٩٢٥).

النَّاسُ مِنْ جَهَةِ التَّمْثِيلِ أَكْفَاءُ
 نَفْسٍ كَنَفْسٍ وَأَرْوَاحٍ مُشَاكِلةٌ
 فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ أَصْلِهِمْ حَسَبٌ
 مَا الْفَضْلُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ
 وَقَدَرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ
 وَضِدُّ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ
 أَبُوهُمْ آدَمُ وَالْأُمَّ حَوَاءُ
 وَأَعْظَمُ خَلَقَتْ فِيهِمْ وَأَعْضَاءُ
 يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطَّيْنُ وَالْمَاءُ
 عَلَى الْهَدْيِ لِنِ اسْتَهْدَى أَدِلَاءُ
 وَلِلرَّجَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ سِيْمَاءُ
 وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ^(١)

ب - الأخوة الإيمانية :

رابطة الإيمان والعقيدة هي أقوى رابطة تجمع بين الإنسان والإنسان ؛ لأنها رابطة يدعمها الفكر والوجدان أى العقل والقلب ، والانتماء إلى هذه الرابطة والولاء إليها لا يجب أن يكون عصبية وهوى بل لا بد أن يؤسس على قيم العدالة والحق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الحجرات].

والآية قصرت المؤمنين على الأخوة ، بمعنى أنه لا يكون المؤمنون مؤمنين حقاً إلا إذا تحققت بينهم معانى الأخوة والتزاماتها ؛ لأن المؤمنين إخوة ، ومن لم يستشعر هذه الأخوة مع بقية المؤمنين فليس منهم . ولا تفيد الآية أبداً أنه لا أخوة إلا الأخوة الإيمانية ، فإنها لم تقصر الأخوة على المؤمنين ، وإن كانت أخوة الإيمان تستلزم قدراً من المحبة والود وغير ذلك من المعانى لكن لا يجوز أن تطفى على رابطة الإنسانية

(١) تفسير القرطبي ٣٤٢/١٦ .

والمواطنة فتقطعها وتتحول إلى عصبية تهدم قيم الحق والعدل. وعندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة هو وأصحابه قام ببناء المسجد، ثم أمر المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة فيما بينهم قال: «تَأَخُّوا فِي اللَّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ»^(١). وآخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، قال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فسمها لى أطلقها، فإذا انقضت عدتها تزوجتها. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك أين سوقكم^(٢).

٢ - العلاقات الاجتماعية مع غير المسلمين :

لقد نشأت بين المسلمين وغيرهم علاقات اجتماعية وتداخل ثقافى وعاطفى وإنسانى على كافة المستويات، وقد ساعد ذلك على التوسع فى المحيط الحضارى للدولة الإسلامية.

فلم يكن اليهود والنصارى فى العراق فى دولة الخلافة وحتى نهاية القرن السادس الهجرى - والذين بلغت أعدادهم حوالى ستمائة ألف يهودى وما بين أربعين وخمسين ألف نصرانى فى بغداد وحدها - يعيشون بمعزل عن المجتمع داخل جالياتهم، ولم تكن لهم أحياء خاصة لا يتعدونها^(٣).

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٥٠٥.

(٢) صحيح البخارى (كتاب فضائل الصحابة - باب إزاء النبى صلى الله عليه وسلم بين

المهاجرين والأنصار).

(٣) آدم منز الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٨٣-٨٦ .

وإن أحكام الشريعة الإسلامية التي تتعلق بالعلاقة بين المسلمين وغيرهم داخل الدولة الإسلامية وخارجها لتعكس منظورا تتجلى فيه قيمة المساواة بين الناس، ولن تجد أبدا في هذه المعاملة أو العلاقة تعاليا أو كبرا أو اشمئزا أو كراهية، بل على العكس من ذلك ستجد رحمة وبرا وعدلا وقسطا.

وَالْهَدَىٰ فِي مَعَامَلَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المتحنة).

وفيهما أن الله تعالى لا ينهى المؤمنين به أن يبروا ويحسنوا إلى كل من سألهم فلم يقاتلهم معتديا على حريتهم الدينية ولم يخرجهم من ديارهم مشردا لهم من أوطانهم، ولكنه سبحانه يأمرهم بالقسط والعدل؛ لأنه سبحانه وتعالى يحب من عباده المقسطين أى المقيمين للتعامل بالعدل، وجاءت عبارة إن الله يحب المقسطين خاتمة للآية بشكل عام، فالقسط مطلوب من المؤمن بالله على كل وجه وفي كل حال مع الإنسان والحيوان والنبات، مع النفس والغير، مع المؤمن والكافر، مع المسالم والمحارب.

ففى هذه الآية منهج يحقق السلام الاجتماعى بين الناس، وهى تتحدث عن مستوى أعلى من مستوى إعطاء الحقوق وأخذها، وهو مستوى تقديم البر والإحسان والفضل.

أ- معاملة غير المسلم بالرحمة والإنسانية.

لسنا المسلمين مطالبين فقط شرعا برحمة الإنسان أيا كانت عقيدته،

بل نحن مطالبون أيضا باعتقاد مساواته لنا إنسانيا وأحقيته شرعا في المعاملة الكريمة اللائقة بالإنسان، على القدر الذي يستوى فيه المؤمن وغيره. فإن الإسلام هو رسالة الرحمة، والرحمة فيه للعالمين.

١ - قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء] والآية تدل صراحة على أن الرحمة ليست مقصورة على المسلمين، وإنما تشمل جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، فكيف تنال رحمة الإسلام ورحمة النبي ﷺ من لم يؤمن بهما؟ هل يجبر على الدخول في الإسلام كي تتحقق له الرحمة وتنااله، وفي هذا إكراه وإرغام، وهو معنى يتنافى مع الرحمة، ولا يكون أبدا طريقا موصلا إليها.

والأمر عكس ذلك، فالرحمة في الإسلام هي الحرية والسعة في الاختيار، فرحمة الإسلام تنال الكافرين وهم على أديانهم؛ لأنه رسالة صلاح وجمال في الكون تشمل الإنسان والنبات والحيوان، فالكافر ينعم في حياته وهو على دينه برحمة الإسلام، يعيش في أمن واطمئنان، يناله البر والخير من كل جانب، إن مباشرة من طريق المسلم، وإن من طريق آخر كان الإسلام سببا في وجوده.

وفي الآية أنه يجب على المسلم أن يشيع الرحمة، ويجعلها رسالته في الدنيا، وألا يجعل أى فعل أو قول يصدر منه يكون فيه إيذاء أو ضرر أو فساد يضاد الرحمة، لأن ذلك ينسب السوء إلى دينه وشريعته التي أمر الله بها وفي الآية أن الإسلام مضمون رسالته الرحمة، وغاية رسالته الرحمة، وأن نبيها رحمة، وأتباعه لا بد أن يكونوا رحمة، وما كانت تلك الرسالة إلا لإيصال الرحمة من الخالق إلى الخلق.

٢ - وروى عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَضَعُ اللَّهُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «لَيْسَ الَّذِي يَرْحَمُ نَفْسَهُ خَاصَّةً، وَلَكِنَّ الَّذِي يَرْحَمُ النَّاسَ عَامَّةً»^(١).

٣ - وقد أمر النبي ﷺ بالرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات فقال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٢).

قال الطيبي: لأن الرحمة في الخلق رقة القلب، والرقة في القلب علامة الإيمان، فمن لا رقة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شقى، فمن لا يرزق الرقة شقى.

«من فى الأرض» بصيغة العموم يشمل جميع أصناف الخلائق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والمبهم، والوحش والطير^(٣).

وقال ابن بطال المغربى (ت ٤٤٩): فيه الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم، كافرهم ومؤمنهم، ولجميع البهائم - المملوك منها وغير المملوك - والرفق بها. وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغى لكل مؤمن عاقل أن يرغب فى الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها فى أبناء جنسه وفى كل حيوان، فلم يخلقه الله

(١) البيهقى: شعب الإيعان ٤٠٨/١٣، تحقيق مختار أحمد الندوى، مكتبة الرشد،

ط/١٣/٢٠٠٣م.

(٢) الترمذى (كتاب البر والصلة - باب رحمة المسلمين)، وأبو داود (كتاب الأدب - باب

فى الرحمة).

(٣) المباركفورى: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٥١/٦، تحقيق عبد الوهاب عبد

اللطيف، دار الفكر.

عبثاً. ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقى والتخفيف في الحمل وترك التعدى بالضرب^(١).

وقال العارف البوني: فإن كان لك شوق إلى رحمة من الله فكن رحيماً لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك ورفع غضبك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه، فكل ما يفعله من خير دق أو جل فهو صادر عن صفة الرحمة^(٢).

٤ - وقال ﷺ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَأَغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ؛ وَيَلُ لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيَلُ لِلْمُصْرِينِ الَّذِينَ يُصِرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^(٣).

(ارْحَمُوا تُرْحَمُوا) لأن الرحمة من صفات الحق التي شمل بها عباده، فلذا كانت أعلما اتصف بها البشر، فندب إليها الشارع في كل شيء حتى في قتال الكفار والذبح وإقامة الحجج وغير ذلك. (وَأَغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ) لأنه سبحانه وتعالى يحب أسمائه وصفاته التي منها الرحمة والعفو، ويحب من خلقه من تخلق بها. (وَيَلُ لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ) أي شدة هلكة من لا يعي أوامر الشرع ولم يتأدب بأدابه، والأقْمَاعُ جمع قَمَعَ: الإناء الذي يجعل في رأس الظرف ليملاً بالمائع، شَبَّهَ اسْتِمَاعَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

(١) ابن بطال: شرح صحيح البخارى ٢١٩/٩، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة

الرشد.

(٢) المناوى: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥٦/٤.

(٣) مسند أحمد (مسند عبد الله بن عمرو)، والسيوطى فى الجامع الصغير، والألبانى فى

صحيح الجامع رقم (٨٩٧)، والسلسلة الصحيحة رقم (٨٩٧).

ولا يَعُونُهُ ولا يَعْمَلُونَ بِهِ بِالْأَقْمَاعِ الَّتِي لَا تَعْبَى شَيْئًا مِمَّا يُفْرَغُ فِيهَا^(١).
 ٥ - والمسلم فى حالة الحرب والقتال لا يخلو فعله من الرحمة والإنسانية، فقد أهدى النبى ﷺ أبا سفيان تمر عجوة وبعث إليه بخمسمائة دينار ليوزعها على أهل مكة حين تولاهم القحط، كما أنه أمر ثمامة بن أثال أن يسمح بالميرة لقريش، فبعد أن منعها عنهم ثمامة بعد إسلامه كتبوا إلى رسول الله ﷺ: إِنَّكَ تَأْمُرُ بِصَلَةِ الرَّجْمِ وَإِنَّكَ قَدْ قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا، وَقَدْ قَتَلْتَ الْأَبَاءَ بِالسُّنَيْفِ وَالْأَبْنََاءَ بِالْجُوعِ. فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ أَنْ يُخْلَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحِمْلِ^(٢).

مما يبين رحمة رسول الله ﷺ بأعدائه من المشركين المحاربين.
 ٦ - وقال النبى ﷺ: «إِنَّ آلَ أَبِي لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَجْمٌ أَبْلَاهَا بِبِلَالِهَا». يَعْنِي أَصْلَهَا بِصَلَاتِهَا^(٣).
 ٧ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرِزُّهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٤).

وفيه الأمر بعمل الخير، وأن حصول الثواب مترتب عليه، وإن كان المستفيد بهذا الخير غير مسلم أو غير إنسان أصلاً.

(١) المناوى: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦/١٠٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٦٣٨.

(٣) صحيح البخارى (كتاب الأدب - باب يُبَلُّ الرَّجْمُ بِبِلَالِهَا).

(٤) صحيح البخارى (كتاب الأدب - باب رَحْمَةُ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ).

ب - عطاء المسلم لغير المسلم بأمر الإسلام.

لقد أوجب الإسلام على أتباعه التزامات وواجبات مالية ، وكان لغير المسلم نصيب فيها، وذلك كزكاة المال أو صدقة الفطر.

١- زكاة المال.

لقد انتظمت آية واحدة في كتاب الله أصناف من تجب لهم الزكاة . قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلُفَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَيْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة].

فقد جعل الله عز وجل بنص الكتاب لفئة معينة من أهل الذمة سهما في أنصبة الزكاة المفروض على المسلمين أداؤها، وقد سمي الله عز وجل هذه الفئة بـ «المؤلفة قلوبهم».

والمؤلفة قلوبهم ما هم إلا قوم قائمون على دين يخالف الإسلام . غير أنهم معوزون وفقراء، بمعنى أن حالتهم الاقتصادية ضعيفة لا تكفل لهم الضروريات والحاجيات والتحسينات الحياتية التي تضمن لهم الحياة الكريمة ، بمعنى آخر أن إرادتهم وحریتهم في التوجه والاختيار الفكري والعقائدي والسلوكي ليست مستقلة بالقدر الكافي لاتخاذ قرار قد يترتب عليه الانفصال عن أهل والأقارب، وتحمل ما يوقعونه بهم من أذى وضرر.

وهناك صفة أخرى يتحدد بها من هم المؤلفة قلوبهم، وهي أن يلتزم صارف الزكاة في مثل هؤلاء الرحمة واللين والولاء للمسلمين والدولة

الإسلامية، أى لا يبدر منهم ما يمكن تفسيره على أنه ضغينة أو حقد أو تريبص.

إذن فصفاة المؤلففة قلوبهم ثلاث:

الأولى: أنهم فقراء معوزون، وهى صفة مشتركة تقريبا بين جميع من تصرف لهم الزكاة كالفقراء والمساكين والغارمين والمكاتبين؛ لأن الزكاة هى إعانة مالية ومساعدة اجتماعية يدفعها القادر عليها ويأخذها المحتاج إليها.

الثانية: أنهم على غير دين الإسلام، وهذا شىء واضح من اللقب فهم تتألف قلوبهم إلى الإسلام والمسلمين وهم على غير دينهم.

الثالثة: وهى الولاء والانتماء للدولة الإسلامية، أو اللين والمسألة مع المسلمين فى العلاقات الاجتماعية، فليسوا من أهل الغلظة أو الجفاء وليسوا حاقدين أو ضاغبين على الإسلام أو المسلمين، وهذا شىء يتضح من السلوكيات والتصرفات التى تعكس الكراهية والحقد أو اللطف واللين.

والحكمة من إعطاء هذا الصنف من غير المسلمين المقيمين فى الدولة الإسلامية نصيبا من الزكاة المفروضة على المسلم ليست إغراء هؤلاء بالمال على اعتناق الإسلام بالتأكد، وهذا أمر واضح؛ لأن الإسلام قَسَمَ لهم نصيبا وهم على دين مخالف، وكونهم على هذه المخالفة شرط فى استحقاقهم لهذا النصيب، ودخولهم فى الإسلام سيوجب عليهم الزكاة التى هى أضعاف ما كانوا يأخذونه، ويحجب عنهم النصيب المستحق

للمؤلفة قلوبهم، إلا إذا كانت حالتهم الاقتصادية في حالة متدنية تصل بهم إلى صفة الفقر أو المسكنة.

إذن فالحكمة من فرض هذا النصيب هي مدافعة أى نوع من أنواع الضغوط المتوقعة على الإنسان والتي يمكنها أن تسلبه ولو جزءاً ضئيلاً من حريته، فحصول المؤلفة قلوبهم على هذه المساعدة البسيطة - والتي قد لا تكافئ أو تعادل ما يحصلون عليه من فئتهم أو طائفتهم - تعطيهم على الأقل قدراً من الاطمئنان والأمن والحرية في الاختيار.

إن المؤلفة قلوبهم وكما ذكرنا في صفاتهم أناس فقراء معوزون، وهذا الصنف من الناس عرضة للعبث بحريته الدينية واختياره الكامل لعقيدته، أليس عرضة أن يضغط عليه الأغنياء من أهل دينه فيمنعوه من التفكير في التحول عن دينه إن رغب؟ أليس عرضة أن يضغط عليه أتباع دين آخر مستغلين حاجته ومسكنته ليحولوه إلى دين لا يرغب فيه؟ أليس عرضة أن يغريه قوم آخرون بالمال حتى يخون وطنه وبلده الإسلامى ويكون عينا وعونا للأجنبي؟

لماذا أوقف عمر بن الخطاب إعطاء هذا السهم؟

لقد ارتأى عمر بن الخطاب باجتهاد خاص منه أن يمنع سهم المؤلفة قلوبهم عن كانوا يأخذونه في عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر، وهذا الاجتهاد خاص بظروف العصر والبيئة التي وجد فيها عمر، ومرتبطة كذلك بطبيعة الأشخاص «المؤلفة قلوبهم»، بمعنى أنه وجد عدم انطباق صفات المؤلفة قلوبهم على هؤلاء الأشخاص في هذا الزمان.

وما أوقف عمر بن الخطاب سهم المؤلفة قلوبهم، وما يملك أن يحذف

وجوده من الشريعة، ولكن كل ما فى الأمر أنه وجد أن هؤلاء الأشخاص الذين أخذوا من أموال الزكاة الكثير لم يعد ينطبق عليهم وصف المؤلفلة قلوبهم، بمعنى أنهم صاروا أغنياء ولم تعد حالتهم المادية معوزة لهم أو ملجئة أو مخوفة لأن يتفكروا ويختاروا بحرية، وكذلك وجد أن أخذهم لهذا السهم أصبح مشجعا لهم على البطالة والكسل وعدم العمل والكسب، اعتمادا منهم عليه، بل إن من فطنته رضى الله عنه وجد أن حكمة وعلّة هذا السهم انقلبت إلى ضدها، فقد أصبح أخذ هؤلاء لسهم المؤلفلة قلوبهم مرغما ومكرها ومشجعا لهم على البقاء على الكفر والشرك؛ لأنهم يستحقون من الدولة إعالة وإعانة مادية على بقاء هذه الصفة لاحقة بهم، فهم وإن كانت قناعاتهم تقودهم إلى الإسلام لا يختارون الدخول فيه كى لا يفقدوا ما يأخذون. إضافة إلى أن الجزيرة العربية فى عهد عمر بن الخطاب أصبحت أحادية الدين، فلم يعد هؤلاء يتعرضون لضغوط أو إغراءات تحتاج إلى معادلة أو مكافأة كى يحدث عندهم التوازن وحرية الاختيار.

فقد تحول كل سكان الجزيرة إلى الإسلام عن قناعة وحب إلى الإسلام، فما بقاء هؤلاء على الشرك؟ وما الذى يجعلهم مستحقين لنصيب فى زكاة المسلمين؟

ولقد ذهب بعض الفقهاء إلى تفسير فعل عمر هذا بأنه اجتهاد اتبع فيه المقصد من السهم، وهذا المقصد من وجهة نظرهم هو إعزاز المسلمين وتكثير سوادهم حينما كانوا يحتاجون، أما إن قويت شوكتهم وعز

الإسلام فإن إعطاء المؤلف قلوبهم سهماً من الزكاة يعد ذلة وخنوعاً^(١). وهذا كلام ليس عليه دليل إلا قول عمر للمؤلفة قلوبهم: إن رسول الله ﷺ كان يعطيكم ليؤلفكم على الإسلام، فأما اليوم فقد أعز الله دينه، فإن ثبتم على الإسلام وإلا فليس بيننا وبينكم إلا السيف. وكان ذلك في خلافة أبي بكر ولم ينكر أحد من الصحابة فعل عمر، فصار إجماعاً. ومن البين أن عبارة عمر بن الخطاب للمؤلفة قلوبهم كانت غايتها زجرهم وإشعارهم بعدم حاجة المسلمين إليهم.

قال عامة العلماء: إنه انتسخ سهمهم وذهب ولم يعطوا شيئاً بعد النبي ﷺ ولا يُعطى الآن لمثل حالهم. وهو أحد قولي الشافعي.

وقال بعضهم: وهو أحد قولي الشافعي رضى الله عنه أن حقهم يبقى^(٢).

قال مالك: لا مؤلفة اليوم.

وقال الثوري: أما المؤلفة قلوبهم فكانوا على عهد رسول الله ﷺ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: المؤلفة قلوبهم قد سقط سهمهم وليس لأهل الذمة في بيت المال حق^(٣).

وواضح أن ما ذهب إليه الفقهاء من الإفتاء بعدم أحقية أحد من المؤلف قلوبهم شيئاً من الزكاة في عهد عمر وحتى عهدهم الذي يعيشون فيه ليس فيه غصاصة.

لكن من قال منهم أن سهم المؤلف قلوبهم انتسخ بعد وفاة رسول الله

(١) تاريخ التشريع على حسب الله ص ١٠١.

(٢) الكاساني: بدائع الصنائع ١٥٢/٢.

(٣) ابن عبد البر: الاستذكار ٢١١/٣.

ﷺ، ما هذا الكلام؟ وهل يصح نسخ بعد وفاة رسول الله؟ وما الذي ينسخ سهما أقره القرآن الكريم بعد وفاة الرسول؟ هل ينسخه الإجماع؟ وهل لو افترضنا إجماعا على إيقاف حكم من أحكام الشرع في قرننا هذا هل يعد ذلك نسخا للحكم يبطله على مدار السنين؟

يجب التنبيه إلى خطورة هذا الكلام، وأنه مرفوض عقلا وشرعا، ولا يصح أن يقال: ثبت باتفاق الأمة أن النبي ﷺ إنما كان يعطيهم ليتألفهم على الإسلام، ولهذا سماهم الله المؤلفة قلوبهم، والإسلام يومئذ في ضعف، وأهله في قلة، وأولئك كثير ذو قوة وعدد، واليوم بحمد الله عز الإسلام وكثر أهله، واشتدت دعائمه، ورسخ بنيانه، وصار أهل الشرك أذلاء، والحكم متى كان معقولا بمعنى خاص ينتهي بذهاب ذلك المعنى. ونظيره ما كان عاهد رسول الله ﷺ كثيرا لحاجته إلى معاهدتهم ومداراتهم لقلّة أهل الإسلام وضعفهم، فلما أعز الله الإسلام وكثر أهله أمر رسول الله ﷺ أن يرد إلى أهل العهود عهودهم وأن يحارب المشركين جميعا، بقوله عز وجل: (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) إلى قوله: (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)^(١).

وهذا ليس مسلكا شرعيا، ولا نهجا نبويا، ولا منطقا إلهيا. ولا يصح ذلك أن يكون مقصدا شرعيا، بل إنه منطوق ميكافيللي، نسالم الناس ونعطيهم الأموال حينما نكون ضعفاء قليلي العدد وبمجرد أن تشتد شوكتنا ويزداد عددا نقطع عن المحتاجين عطاءنا ونهب على

(١) الكاساني: الموضع السابق.

الآمنين ننبذ إليهم عهدهم ونقتلهم جميعا حيث وجدوا.

ما هذا الكلام ؟

ليس في إعطاء المؤلفه قلوبهم سهما من الزكاة كما قرر القرآن ذلة أو خنوعا، ولا يصح أن يشرع للمؤمنين ما فيه ذلة أو خنوعا لا وقت الضعف ولا وقت القوة، ولم يعرف شرعنا ولا ديننا المكر أو الخديعة، ولا يعرف ربنا ولا نبينا بتبديل المبادئ والقيم حسب المصلحة الخاصة، ولم تشرع الأحكام الإسلامية سواء في القرآن أم السنة بهذا المنطق. وقد تمكن الرسول الكريم ﷺ من أعدائه المشركين في مواقف عدة، ولم يجهز عليهم أو يغدر بهم، بل عفا عنهم، وعرض عليهم الأمن مقابل السلام.

ومعنى أن سهم المؤلفه قلوبهم قد انتسخ أنه سبحانه وتعالى نص في كتابه العزيز الذي هو رسالة زمانية ومكانية مستمرة إلى يوم القيامة على حكم مؤقت يستمر عشرين عاما ثم يُلغى.

وإن فهم فاهم أو أول مؤول كلام عمر بن الخطاب على أنه ما امتنع عن إعطائهم نصيبهم في الزكاة إلا لأن الإسلام قد عز والمسلمون قد كثر عددهم ولم يعودا في حاجة لهؤلاء المشركين، وأنهم إنما كانوا يعطوا هذا النصيب لتأليف قلوبهم للمساعدة لنا فقط، فليكن ذلك. وليكن أصاب عمر في فعله، وأخطأ الآخر في تأويل سبب الحكم، وفي تعليل سبب تعطيله الحكم.

وفي نفس الآية ذكر سبحانه سهما في زكاة المسلم يوجه لتحرير الإنسان من العبودية والرق. قال: (وَفِي الرِّقَابِ).

وفيهما عدة أمور: أولها الكناية عن العبيد والإماء بلفظة رقيقة وهى (الرقاب) جمع رقبة.

وثانيها: أمر الله سبحانه المؤمنين بأن يجعلوا فى أموالهم فرضا ونصيبا لمساعدة المكاتبين من العبيد والإماء لمساعدتهم فى تحرير أنفسهم من الرق، على الرغم من أنهم يغلب فيهم عدم الإيمان؛ لأنهم إنما رقوا فى إثر حرب بين المؤمنين وغيرهم.

وثالثها: أن هذا الحكم ما زال فاعلا ومستمرا فى حياة الناس على الرغم من إلغاء الرق، وذلك أن استعباد الإنسان للإنسان ما زال مستمرا وإن أخذ أشكالا وصورا مختلفة.

فإنه ما زالت هناك شعوب بأكملها تعاني من الفقر المدقع والحاجة للغذاء ما يضطرها إلى أن تبيع أبناءها، فيجب على المسلمين أن يمدوا يد المساعدة إلى هؤلاء ولا يتركونهم نهبة لمن يريد استعبادهم وسلب حرياتهم وكراماتهم بأى شكل من الأشكال.

والتعويل فى الحكم على قصد المتكلم، والألفاظ لم تقصد لنفسها، وإنما هى مقصودة للمعاني، والتوصل بها إلى معرفة مراد المتكلم ومراده يظهر من عموم لفظه تارة ومن عموم المعنى الذى قصده تارة، وقد يكون فهمه من المعنى أقوى، وقد يكون من اللفظ أقوى، وقد يتقاربان^(١).

٢ - صدقة الفطر.

إن الإمام أبا حنيفة يرى جواز إعطاء زكاة الفطر إلى الذمي إن كان محتاجا إليها. فَيَجُوزُ التَّصَدُّقُ عَلَى الذَّمِّيِّ كَمَا لِمُسْلِمٍ كَمَا هُوَ الْحُكْمُ فِي الْمَشْبَهِ بِهِ وَالْمُسْلِمُ أَحَبُّ .

(١) إعلام الموقعين ٢١٧/١.

وَالصَّدَقَةُ هِيَ الْعَطِيَّةُ الَّتِي يُرَادُ بِهَا الْمُثُوبَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَسُمِّيَتْ بِهَا؛ لِأَنَّهَا تُظْهِرُ صِدْقَ رَغْبَةِ الرَّجُلِ فِي تِلْكَ الْمُثُوبَةِ^(١).

وَيَجُوزُ لصدقة الفطر أن تخرج في صورة إطعام للفقراء. قَالَ الرَّمْلِيُّ: وَفِي الْحَاوِي وَإِنْ أَطْعَمَ فُقَرَاءَ أَهْلِ الذِّمَّةِ جَازَ^(٢).

٣- الوقف على أهل الذمة.

ويصح الوقف على أهل الذمة عند الحنفية وفي ذلك يقول ابن الهمام: والواقف مالك، له أن يجعل ماله حيث شاء مالم يكن معصية، وله أن يخص صنفا من الفقراء دون صنف، وإن كان الوضع في كلهم قرية، ولا شك أن التصدق على أهل الذمة قرية، حتى جاز أن تدفع إليهم صدقة الفطر والكفارات عندنا، فكيف لا يعتبر شرطه في صنف دون صنف من الفقراء، رأيت لو وقف على فقراء أهل الذمة ولم يذكر غيرهم أليس يُحْرَمَ منه فقراء المسلمين، ولو دفع المتولى إلى المسلمين كان ضامنا، فهذا مثله. والإسلام ليس سببا للحرمان، بل الحرمان لعدم تحقق سبب تملكه هذا المال، والسبب هو إعطاء الواقف المالك، وشرط صحة وقفه أن يكون قرية عندنا وعندهم، فلو وقف على بيعة مثلا، فإذا خربت يكون للفقراء^(٣).

٤- الوصية لغير المسلم.

وَتَصِحُّ الوَصِيَّةُ لِذِمِّيٍّ بِمَا يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ لَهُ، كَمَا يَجُوزُ التَّصَدُّقُ عَلَيْهِ،

(١) ابن نجيم: البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٢٥٠/٧.

(٢) حاشية ابن عابدين ٤٧٩/٣.

(٣) ابن الهمام: فتح القدير شرح الهداية ٢٠٠/٦.

فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ حَرَاءٌ أَجْرٌ». وَعَنْ الْبَيْهَقِيِّ: أَنْ صَفِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا أَوْصَتْ لِأَخِيهَا بِأَلْفِ دِينَارٍ وَكَانَ يَهُودِيًّا. أَمَّا مَا لَا يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ لَهُ كَالْمَصْحَفِ وَالْعَبْدِ الْمُسْلِمِ فَلَا تَصِحُّ الْوَصِيَّةُ لَهُ بِهِ، وَفِي مَعْنَى الذَّمِّيِّ الْمَعَاهِدُ وَالْمُسْتَأْمَنُ كَمَا قَالَهُ فِي التَّتِمَّةِ. وَكَذَا حَرَبِيٌّ مُعَيَّنٌ سِوَاءُ أَكَانَ بَدَارِنًا أَمْ لَا، بِمَا لَهُ تَمَلُّكُهُ، لَا كَسَيْفٍ وَرُمْحٍ. وَكَذَا مُرْتَدٌّ مُعَيَّنٌ لَمْ يَمُتْ مُرْتَدًّا، تَصِحُّ الْوَصِيَّةُ لِكُلِّ مِنْهُمَا فِي الْأَصَحِّ كَالْهَبَةِ وَالصَّدَقَةِ^(١).

ج - جواز نكاح الكتابيات .

لقد أباح الشرع الإسلامي للمسلمين الزواج من نساء أهل الكتاب مع ما أثبتته من مودة ورحمة بين الزوجين، قال تعالى: ﴿أَيُّومَ أَجَلَ لَكُمْ أَنْ تُطِيبْتُمْ وُجُوهَكُمْ أَلَيْسَ الْأَرْبَابُ لِكُمْ وَالْحَيَاتُ يُغْنِي عَنْكُمْ وَاللَّذِينَ أَحْسَنُوا لَسَاءَ أَوْلِيَاءَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ تَخْرُجُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية: ٥] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (١١) [سورة الروم].

ولا تعارض بين شعور الرجل بالمودة والرحمة تجاه زوجته وبين كونها على دين كتابي مخالف لدينه.

وقد اختلف في تزوج الكتابية الحربية، وقوله تعالى: (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ) لم يفرق فيه بين الحربيات والذميات،

(١) الخطيب الشيبيني مفنى المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج ٩١/١١.

وغير جائز تخصيصه بغير دلالة، وقوله تعالى: ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [سورة التوبة: الآية: ٢٩] لا تعلق له بجواز النكاح ولا فساد، ولو كان وجوب القتال علة لفساد النكاح لوجب ألا يجوز نكاح نساء الخوارج وأهل البغي؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَتَلُوا الَّذِينَ تَبَعُوا حَتَّى تَقَىءَ إِلَىٰ آمْرِ اللَّهِ﴾ [سورة الحجرات: الآية: ٩] فبان بما وصفنا أنه لا تأثير لوجوب القتال في إفساد النكاح، وإنما كرهه الحنفية لقوله تعالى: ﴿لَا تَحِدُّ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية: ٢٢] والنكاح يوجب المودة، لقوله تعالى: (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) فلما أخبر أن النكاح سبب المودة والرحمة، ونهانا عن مودة أهل الحرب، كرهوا ذلك، وقوله: (يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) إنما هو في أهل الحرب دون أهل الذمة؛ لأنه لفظ مشتق من كونهم في حد ونحن في حد، وكذلك المشاققة، وهو أن يكونوا في شق ونحن في شق، وهذه صفة أهل الحرب دون أهل الذمة^(١).

وعليه يكره تزوج نساء أهل الحرب من الكتابيات، لا على وجه التحريم، فقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين إباحتهم نكاح الكتابيات، فإن عثمان تزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية وهي نصرانية على نسائه. وإن طلحة بن عبيد الله تزوج يهودية من أهل الشام، وروى عن حذيفة أيضا أنه تزوج يهودية، وكتب إليه عمر أن خل سبيلها، فكتب إليه حذيفة: أحرام هي؟! فكتب إليه عمر: لا ولكن أخاف أن

(١) راجع أحكام القرآن للجصاص ١٧/٢.

توافقوا المومسات منهن. يعنى العواهر.

فهذا يدل على أن معنى الإحسان فى هذه الآية كما فهمه عمر بن الخطاب هو العفة.

د - جواز إعطاء الكافر هدية أو قبولها منه.

أولا: قبول الهدية من غير المسلم.

- قبل النبى ﷺ هدية المقوقس ملك القبط .

- وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا^(١).

- وفى الحديث أنه ﷺ قال لبلال : «إِنَّ لَكَ رِقَابَهُنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ، فَإِنَّ عَلَيْهِنَّ كِسْوَةَ وَطَعَامًا، أَهْدَاهُنَّ إِلَى عَظِيمٍ فَذَكَ فَاقْبِضْهُنَّ وَأَقْضِ دَيْنَكَ». فَفَعَلْتُ^(٢).

ثانيا: تقديم الهدية لغير المسلم .

فإن عبد الله بن عمرو ذُبِحَتْ له شاةٌ فى أهله ، فلما جاء قال : أهديتم لجارنا اليهودى؟ أهديتم لجارنا اليهودى؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»^(٣). وَذَكَرَ مُحَمَّدٌ فِي السِّيَرِ الْكَبِيرِ: لَا بَأْسَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُعْطَى كَافِرًا حَرْبِيًّا أَوْ ذِمِّيًّا، وَأَنْ يَقْبَلَ الْهَدِيَّةَ مِنْهُ، لِمَا رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ خَمْسِمِائَةَ

(١) صحيح البخارى (كتاب الهبة وفضلها - باب المكافأة فى الهبة) .

(٢) أبو داود (كتاب الخراج والإمارة والفسى - باب فى الإمام يقبل هدايا المشركين)

٤٩٨/٣، رقم (٣٠٥٠).

(٣) سنن الترمذى (كتاب البر والصلة - باب ما جاء فى حق الجوان) .

دِينَارَ إِلَى مَكَّةَ حِينَ قَحَطُوا وَأَمَرَ بِدَفْعِهَا إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَصَفْوَانَ
ابْنَ أُمَيَّةَ؛ لِيُفْرَقَا عَلَى فُقَرَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ؛ وَلِأَنَّ صَلَّةَ الرَّحِمِ مَحْمُودَةٌ فِي كُلِّ
دِينٍ ، وَالْإِهْدَاءُ إِلَى الْغَيْرِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ^(١).

هـ - جواز الدعاء للمشركين والمحاربين بالهداية إلى الحق .

– قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ
عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ
عَلَيْهَا. فَقِيلَ: هَلَكْتَ دَوْسٌ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ»^(٢).

– وكان اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ يرجون أن يقول لهم
يرحمكم الله، فيقول: «يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصَلِّحُ بِالْكُم»^(٣).

– وعن أبي هريرة قال: كنت أدعو أُمى إلى الإسلام وهى مشركة،
فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى، قلت: يا رسول الله إنى كنت أدعو أُمى
إلى الإسلام فتأبى على، فدعوتها اليوم فأسمعتنى فىك ما أكره، فادْعُ
الله أن يهدى أم أبى هريرة. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي
هُرَيْرَةَ»^(٤).

و - صلة رحم غير مسلم.

(١) حاشية ابن عابدين ٣٥٢/٢ .

(٢) صحيح البخارى (كتاب الجهاد والسير - باب الدعاء للمُشركين بالهدى لِيَتَأَلَّفَهُمْ) .

(٣) سنن الترمذى (كتاب الأدب - باب ما جاء كيف تسميت العاطس) . وصححه الألبانى

فى إرواء الغليل رقم (١٢٧٧) .

(٤) صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أبى هريرة الدوسى رضى الله عنه).

١ - قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَةٌ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ (سورة لقمان).

٢ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَيْرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَىٰ أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا»^(١).

فالنبي ﷺ يوصي المسلمين بأهل مصر، وهم حينئذ أقباط، ويعمل ذلك بأن فيهم نسبا من طريق هاجر أم إسماعيل، وصهرا من طريق مارية أم إبراهيم.

٣ - وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَىٰ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: إِنَّ أُمَّي قَدِمَتْ، وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمَّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ»^(٢).

٤ - وأهدى عمر بن الخطاب لأخيه المشرك حلة، أرسلها إليه في مكة.

جاء في صحيح البخارى أنه أتى رسول الله - ﷺ - مِنْهَا بِحُلَّةٍ فَأَرْسَلَ إِلَىٰ عُمَرَ مِنْهَا بِحُلَّةٍ. فَقَالَ عُمَرُ: كَيْفَ أَلْبَسَهَا وَقَدْ قُلْتَ فِيهَا مَا قُلْتَ؟ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أَكْسُكَهَا لِتَلْبَسَهَا، تَبِيعَهَا أَوْ تَكْسُوهَا». فَأَرْسَلَ بِهَا عُمَرُ إِلَىٰ أَخِي لَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ.

ز - إجابة دعوة غير المسلم إلى الطعام^(٣).

(١) صحيح مسلم (فضائل الصحابة - باب وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل بطن).

(٢) صحيح البخارى (كتاب الهبة - باب الهدية للمُشْرِكِينَ).

(٣) صحيح البخارى (كتاب الهبة - باب الهدية للمُشْرِكِينَ).

روى أحمد في مسنده أن يهودياً دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنيحة، فأجابته^(١).

وتدور آراء الفقهاء في هذه المسألة بين الوجوب والندب والإباحة، مستدلين بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية: ٥].

وروى أبو يوسف عن سلمان الفارسي أنه قال: وإذا صحبت صاحب منهم تأكل من طعامه، ويأكل من طعامك، ويركب دابتك، وتركب دابته في ألا تصرفه عن وجهه يريد^(٢).

ح - إكرام الضيف غير المسلم.

أمر الإسلام بإكرام الضيف والإحسان إلى ابن السبيل وحسن قراه، وإن كان مخالفاً في الدين، ومن ذلك إكرام النبي للوفود التي كانت تحضر إلى المدينة، فقد أكرم ﷺ وفد نجران النصارى، وأفسح لهم مكاناً في مسجده كي يقيموا فيه صلواتهم.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ نَصَارَى نَجْرَانَ بِالْمَدِينَةِ فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ وَقَدْ نَجْرَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَخَلُوا عَلَيْهِ مَسْجِدَهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَحَانَتْ صَلَاتُهُمْ، فَقَامُوا يُصَلُّونَ فِي مَسْجِدِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهُمْ». فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ فَصَلُّوا صَلَاتَهُمْ^(٣).

(١) مسند أحمد ٣/٢١٠، مسند أنس بن مالك.

(٢) أبو يوسف: الخراج ١٢٦.

(٣) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ٣/٥٤٩. تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسس

الرسالة بيروت ط ١٤، ١٩٨٦ م.

ط - السلام على أهل الذمة.

كيف يلتقى المسلم مع الذمي أو الكتابي؟ كره بعض الفقهاء ابتداءهم بالسلام، للأدلة:

١ - ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقَيْتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَأَضْطَرُّوهٗ إِلَىٰ أَضِيْقِهِ»^(١).

وقال في الحديث الذي تلاه: وفي حديث وكيع: «إِذَا لَقَيْتُمُ الْيَهُودَ». وفي حديث ابن جعفر عن شعبة قال فيه: «أَهْلَ الْكِتَابِ». وفي حديث جرير: «إِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ». وَلَمْ يُسَمَّ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام، روى ذلك عن ابن عباس، وأبي أمامة، وابن أبي محيريز، وهو وجه لبعض أصحابنا حكاها الماوردى^(٢).

قال القرطبي: « قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم. قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَا مَخْرُجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المتحنة). وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة المتحنة: الآية: ٤]، وقال إبراهيم لأبيه: (سَلَامٌ عَلَيْكَ).

(١) صحيح مسلم (كتاب السلام - باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم)

(٢) النووي: شرح صحيح مسلم ١٤٥/١٤.

قلت: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة، وفي الباب حديثان صحيحان: روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ». خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَذَكِيَّةٌ وَأَرْدَفٌ وَرَاءَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَهُوَ يُعُودُ سَعْدَ بَنِ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَذَلِكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، حَتَّى مَرَّ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبْدَةَ الْأَوْثَانَ وَالْيَهُودَ، وَفِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ: لَا تُعْبِرُوا عَلَيْنَا. فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ. الْحَدِيثُ

فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداءً؛ لأن ذلك إكرام والكافر ليس أهله.

والحديث الثاني يُجَوِّزُ ذَلِكَ. قَالَ الطَّبْرِيُّ: وَلَا يُعَارِضُ مَا رَوَاهُ أُسَامَةُ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي أَحَدِهِمَا خِلَافٌ لِلْآخَرِ، وَذَلِكَ أَنَّ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ مَخْرَجُهُ الْعَمُومُ، وَخَيْرُ أُسَامَةَ يَبِينُ أَنَّ مَعْنَاهُ الْخُصُوصُ. وَقَالَ النَّخَعِيُّ: إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَابْدَأْهُ بِالسَّلَامِ.

فبان بهذا أن حديث أبي هريرة «لَا تَبْدُؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ» إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام من قضاء ذمام أو حاجة تُعْرَضُ لَكُمْ قَبْلَهُمْ أَوْ حَقٌّ صُحْبَةٍ أَوْ جَوَارٍ أَوْ سَفَرٍ.

قال الطبري: وقد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب، وفعله ابن مسعود **بِدُهْتَانِ صَحْبِهِ فِي طَرِيقِهِ**. قال علقمة: فقلت له يا أبا عبد الرحمن: أليس يُكْرَهُ أَنْ يُبَدَّؤُوا بِالسَّلَامِ؟ قال: نعم. ولكن حَقَّ الصَّحْبَةِ. وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه. فقيل له في ذلك، فقال: **أَمْرًا أَنْ نُنْفِشِيَ السَّلَامَ**. وسئل الأوزاعي عن مسلم مرَّ بكافر فسلم عليه فقال: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك. وروى عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم^(١).

وقول النبي ﷺ فيه خصوصية، فهو يخص اليهود فقط من بنى قريظة، لما غدروا بالعهد وخانوا وهموا بإدخال المشركين في ظهور المسلمين في غزوة الخندق، ورأى النبي معاقبتهم على هذه الخيانة، أراد من أصحابه أن ينيذوا إليهم عهدهم ويشعروهم في صورة رمزية بدنو الحرب عليهم، ولم يُؤَثِّرْ عن رسول الله أنه غلظ لأهل الكتاب عامة أو اليهود أو حتى المشركين عبدة الأوثان، فقد كان رحمة قال عنه ربه: **(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)** وقال عنه: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ)**.

فكان ﷺ يحسن جوارهم، ويعود مرضاهم، ويعزيهم في مصائبهم، فمن يتصور أن رسول الله في المدينة أو في مكة كان يزور اليهود أو المشركين فلا يسلم عليهم.

فمسألة الامتناع عن إلقاء السلام على بنى قريظة كان يشبه الإعلان بالحرب، وليس فيه حكم عام يشمل أهل الكتاب جميعاً أو اليهود جميعاً، ولكن ربما يشمل من كان من أهل الذمة أو أهل العهد أشبه حاله حال بنى قريظة من خيانة للعهد.

ولم يكن رسول الله ﷺ لينهى عن السلام على أهل الكتاب أو أهل الذمة ثم هو يرد عليهم السلام بل يرد عليهم وهو يعلم أنهم يدعون عليه ويسينون القول، ويُعلمُ السيدة عائشة أن الرفق ما كان في شيء إلا زانه وأن الفحش والغلظة والعنف ما كان في شيء إلا شانه.

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش». قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: «أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في»^(١).

وما فعل النبي ﷺ ذلك، وما فعلت السيدة عائشة مع هؤلاء اليهود ما فعلت إلا أنهم قوم ماكرون بذيئون يلحنون بالسلام ليجعلوه دعاء، وعلى الرغم من ذلك ما وجدوا عند رسول الله إلا حسن الرد وحسن الخلق والرأفة والرحمة، فما بالناس لو أنهم كانوا مسلمين أو كانت أخلاقهم طيبة هل يتوقع من رسول الله أو من المسلمين أن يتجنبوهم أو يغلظوا عليهم، ولا يوصف الامتناع عن السلام إلا بالشدة والجفاء.

(١) صحيح البخارى (كتاب الأدب - باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا

ويؤيد ما ذهب إليه من خصوصية النهي عن السلام ببني قريظة
لنبد عهدهم إليهم:

١ - ما رواه ابن ماجه عن أبي عبد الرحمن الجهنبي قال: قال ﷺ:
«إِنِّي رَاكِبٌ غَدًا إِلَى الْيَهُودِ. فَلَا تَبْدُءُوهُمْ بِالسَّلَامِ. فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ
فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»^(١).

٢ - وما رواه أحمد في مسنده وابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي
نضرة الغفاري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّا غَادُونَ إِلَى يَهُودَ، فَلَا
تَبْدُؤُوهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ»^(٢).
وذلك يجعلنا نخصص نهى رسول الله السابق بحادثة بني قريظة،
خاصة أنه في القرآن الكريم من العموم الذي يؤيد ذلك.

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أُولَئِكَ لِمَ أَصَاحِبْتُمْ عَنْتُمْ
وَقُلْ سَلِّمُوا كَمَا سَلِّمْتُمْ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَرِهْتُمْ﴾ [سورة الزخرف].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَايَتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ
كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَلُكُمْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة القصص].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان].

(١) ابن ماجه (كتاب الأدب - باب رد السلام على أهل الذمة) ، وصححه الألباني .
ومسند أحمد وصححه شعيب الأرنؤوط . ورواه البخارى فى الأدب المفرد وأيضاً ابن أبى شيبة
فى المصنف .

(٢) مسند أحمد رقم (٢٧٩٩٧) . وصححه شعيب الأرنؤوط .

وثبت عن ابن عباس أنه قال: من سلم عليك فَرُدُّ عليه ولو كان مجوسياً. وبه قال الشعبي وقتادة^(١).

أما عن كيفية الرد نقول: عليكم. أو وعليكم. وهذا يختلف بطبيعة الحال الذي يكون عليه من نَرُدُّ عليهم من السلم أو العدا.

قال النووي: إثباتها - أي الواو - أجود، فمعناه بدونها: عليكم ما تستحقونه. وبها: أنهم إن لم يقصدوا دعاء علينا فهو دعاء لهم بالإسلام؛ فإنه مناط السلامة في الدارين، وإن قصدوا التعريض بالدعاء علينا فمعناه: ونقول لكم وعليكم ما تريدون بها أو تستحقونه.

ي - مسألة تحديد ملابس تميز أهل الكتاب

وترتب على القول بحرمة ابتداء أهل الكتاب بالسلام أو كراهته أن وضعت مسألة تاريخية ليس لها مستند من الشرع وهي تحديد ملابس يميز بها أهل الكتاب عن المسلمين، حتى يتسنى لهم ألا يبدؤهم بالسلام.

ومسألة تخصيص ملابس معينة في نطاق الحياة الاجتماعية كوسيلة للتمييز بين أصحاب الديانات المختلفة وفي هذه المرحلة المبكرة من التاريخ الحضاري أمر ليس بالسوء الذي صوره المستشرقون، وليس وسيلة للإكراه، ولا تعبيراً عن عدم احترام المخالفين.

وإن كانت مسألة تخصيص الملابس فيها اضطهاد أو تعصب فهي مسألة اشترك فيها المسلم والذمي، فقد كان يُلْزَمُ كلاهما أن يميز بملبس معين؛ لكي تتحدد هوية كل منهما.

(١) فتح الباري ٤٢/١١.

وخلاصة القول فيها أنها صارت مسألة تاريخية نشأت في ظروف بيئية وزمانية معينة.

ك - عيادة المريض غير المسلم .

ويجوز عيادة المرضى من أهل الذمة لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى غلاماً من اليهود كان مريضاً يعودُهُ، ففَعَدَّ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمٌ». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَطِيعَ أَبَا الْقَاسِمِ. فَأَسْلَمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنِّي مِنَ النَّارِ»^(١).

ولما حضرت أبا طالب الوفاة دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: «أَيَّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَلِمَةٌ أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»^(٢).

ل - التعاون في تحقيق المصالح المشتركة .

التعاون على إعمار الكون، والمحافظة على البيئة، وحفظ حياة الإنسان وحقوقه، وتوفير ضروريات معاشه التي تكفل له الكرامة والاحترام، ومحاربة الفساد والعبث في الأرض، كلها أمور يشترك فيها الناس بصفاتهم الإنسانية. ويجب على المسلم أن تكون مشاركته في مثل هذه المصالح العامة التي تخدم الإنسان مشاركة إيجابية، يكون له فيها دور السبق والريادة، ولا يكون المسلم أبداً متخاذلاً عن مثل هذا التفاعل والتعاون.

١ - فقد قبل النبي ﷺ مساعدة عمه أبي طالب وما قام به من دور

(١) صحيح البخارى (كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام) . .

(٢) صحيح البخارى (كتاب الأيمان والنذور - باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم) .

بارز في مؤازرة دعوة الإسلام في مهدها الأول على الرغم من أن أبا طالب لم يقبل الدخول في الإسلام، ولكنه آوى رسول الله وأسبل عليه الحماية والرعاية، ودافع عنه في مواقف كثيرة ضد صناديد قريش، وكان رسول الله يُكَيِّرُ أبا طالب في كل موقف ويحترم رأيه وكلمته طالما أنه لم يأمره بالتخلي عن دعوته وحرية.

والذي جعل موقف النبي ﷺ يختلف في معاملته بين عميه أبي لهب وأبي طالب على الرغم من بقاء كليهما على الكفر، أن أبا طالب احترم إرادة النبي وقدر له حقه في اختيار الدين والدعوة إليه، ولكن أبا لهب ناصب النبي العداء ولم يرض إلا أن يجبر رسول الله وأصحابه على العودة إلى دين الأصنام، ولم يقتنع أبو لهب يوما بحرية الإنسان في اختيار عقيدته.

٢ - وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا انْصَرَفَ عَنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، وَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَصَدِيقِهِ وَنُصْرَتِهِ بَعَثَ إِلَى الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِي فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ تَسَلَّحَ الْمُطْعِمُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْا الْمَسْجِدَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَدْخُلْ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَصَلَّى عِنْدَهُ. ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ^(١).

٣ - ودخلت بنو هاشم جميعها طواعية في الحصار مع بنى عبد المطلب، وقام بعض المشركين بمساعدتهم بالطعام أثناء الحصار.

٤ - وَوَقَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَرِيْقَطٍ، وَاتَّخَذَهُ دَلِيلًا وَمُرْشِدًا فِي طَرِيقِ هَجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَكَانَ ابْنُ أَرِيْقَطٍ مُشْرِكًا وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ أَسْلَمَ قَطً.

(١) ابن هشام السيرة النبوية ١/٣٨١ .

ولم يكن ابن أريقط مجرد أجير أو عامل، بل كان رجلا مقتنعا بشخص النبي مجلا له ومقدرا لقضيته ودينه؛ فقد عمل ابن أريقط على تضليل قريش عن رسول الله وصاحبه بكل سبيل، ولو كان مجرد عامل يبتغى مالا لأرشد عن النبي وصاحبه وفاز بالمائة ناقة التي رصدتها قريش جائزة لمن يدل عليهما.

٥ - احترام النبي ﷺ لملك الحبشة النجاشي وشعوره بالأخوة الإنسانية معه جعله يأمر أصحابه بالهجرة إليه قائلا: «إِنَّهُ لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ».

٦ - عندما عقد النبي ﷺ معاهدة مع قريش في الحديبية تَوَثَّبَتْ خُرَاعَةُ فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ.

فقبل النبي دخول قبيلة خزاعة مسلمهم وكافرهم في حلفه وعهده .
٧ - لَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّيْرَ إِلَى هَوَازِنَ لِيَلْقَاهُمْ ذَكَرَ لَهُ أَنَّ عِنْدَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ أَدْرُعًا وَسِلَاحًا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَوْمئِذٍ مُشْرِكٌ. فَقَالَ: «يَا أَبَا أُمَيَّةَ أَعْرَنَّا سِلَاحَكَ هَذَا نَلْقَى فِيهِ عَدُوَّنَا عَدَاً». فَقَالَ صَفْوَانُ: أَعْضَبًا يَا مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: «بَلْ عَارِيَةٌ، وَمَضْمُونَةٌ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ». قَالَ: لَيْسَ بِهَذَا بَأْسٌ. فَأَقَطَاهُ مِئَةَ رِيعٍ بِمَا يَكْفِيهَا مِنَ السَّلَاحِ، فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ أَنْ يَكْفِيَهُمْ حَمَلَهَا، فَفَعَلَ^(١).

٨ - ولقد أتاحت الدولة الإسلامية لأهل الذمة سبل المشاركة الفعالة في الحياة الاقتصادية، وذلك بما كفلته لهم من حقوق وحرريات جعلتهم يحيزوا الثروات الضخمة والمناصب الكبيرة في العصر العباسي وما بعده.

(١) ابن هشام السيرة النبوية ٤٣٩/٢ .

فأتاحت لأهل الذمة سبيل الاشتغال بالتجارة ويسرت لهم حرية التنقل على امتداد العالم الإسلامي كله، مثال ذلك ما حواه عهد أهل بعلبك أنه لتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وقد تيسر على إثر ذلك لأهل الذمة أن يحتكروا بعض التجارات في أواخر القرن الثالث الهجري مثل الصيرفة.

وتمتع أهل الذمة في البلاد الإسلامية بوضع اقتصادية واجتماعية كانت تؤهلهم لأن يكونوا الثروات الكبيرة ويرتقوا المناصب السياسية الرفيعة، وأن يتمكنوا من ممارسة كافة الشعائر الدينية مثل الاحتفال بالأعياد والمناسبات بحرية وأمان.

ومثال ذلك ما وصل إليه نصارى بغداد من مكانة اجتماعية واقتصادية، ففي أيام الخليفة المتوكل صارت لهم ثروات ضخمة وسكنوا القصور حتى كان الطبيب بختيشوع يضاهاى الخليفة المتوكل فى اللباس وعدد الجوارى والعبيد^(١).

وفى نهاية هذا البحث نسال الله تعالى أن يحققنا بقيمة المساواة وأن يجعلها حكماً بيننا، وصفة سائدة بين أبناء أوطاننا، وألاً تمنعنا الخصوصيات عن النظر إلى قيمة الكرامة الإنسانية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) عيون الأنباء، فى طبقات الأطباء، ٤٣/٢ .